الفصل الثالث
السخرية فى مصر الإسلامية
عبر عصورها التاريخية

مدخل:السخرية والمرح والشخصية المصرية:

عندما نحاول أن نتأمل جانب السخرية والمرح فى الشخصية المصرية ينبغى أن نذكر أولا أن كل شعوب العالم تضرب بسهم فى هذا الجانب أيضا، قل ذلك عندها أو كثر، مع مراعاة أن لكل شعب منها من الملامح والخصائص ما يميزه عن غيره من الشعوب الأخرى[1] .

ولاشك فى أن لهذه السخرية وهذا المرح دورا نقديا، وجانبا إصلاحيا فى كل المجتمعات "والشعب المصرى شعب ساخر بطبعه، ومرح، يحب الفكاهة، ويرسل النكتة فى أحرج المواقف، وهذه قدرة طبيعية فى هذا الشعب الذى عاصر الزمن فى كل ظروفه" [2] وقد وصل حب المصريين للفكاهة والدعابة والمرح،إلى أن الشاعر إذا لم يجد ما يثير ويضحك كان يتخذ من حاله وفقره أداة للتهكم والسخرية كى يرفه عن نفسه وعن قرائه[3] .

ولعل فى ذلك ما يدحض ما يصوره بعض مؤرخى الحضارة المصرية القديمة من أنها كانت حضارة جادة إلى درجة العبوس وتقطيب الوجه[4] .

ولقد كشفت الدراسات الحديثة عن جوانب مهمة فى حياة الشخصية المصرية،منها: المرح، والدعابة، والنكتة، مما يؤكد لنا أن السخرية والمرح خلق قديم عند

١- راجع: الفكاهة والضحك، د. شاكر عبد الحميد/٢٤١ وما بعدها.
٢- السخرية فى أدب المازني، د. حامد الهوال/٧٥ .
وراجع: مجلة كلية اللغة العربية بالمنصورة، العدد١٤/٣٥٧، ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م.
٣- راجع: شعر الحرفيين فى العصر المملوكي، د. السيد عويضة/٢٠٧ .
٤- راجع: الأدب الساخر، د. نبيل راغب/٩٣ .

الشعب المصري، "فقد بدأ تهكمه وميله إلى المرح والفكاهة فى رسوم وصور على قبور الدولة القديمة" [1].

وهذا يدل دلالة واضحة على تأصل هذه النزعة فى الشعب المصرى منذ عهوده القديمة[2].

ويذكر الدكتور شوقى ضيف أمثلة كثيرة على ذلك، منها قوله: "ومن الصور التى لا نكاد نراها حتى نبتسم، صورة أمير وأميرة بلاد بونت، وهما وافدان على فرعون مصر لتقديم فروض الطاعة، وفيها نرى الأميرة قد تضخم نصفها الأسفل وتأخر فى وضعه عن النصف الأعلى، فأصبح شكلا مثيرا للسخرية والضحك" [3].

وهذه الصورة تعطى دلالة واضحة على أن خاصية الضحك على الغرباء، لها جذور تمتد من العصور الأولى للحضارة المصرية القديمة حتى عصرنا هذا[4] ونزعة الضحك والسخرية من الغرباء، أو من الجماعات الأخرى، أمر منتشر فى ثقافات البشرية على اختلاف أجناسها.

وهى تهدف إلى التحقير والتقليل من شأن الآخرين، كما أنها تنطوى على سخرية مرة ولاذعة[5].

ولقد كانت مصر الفرعونية "تضحك وتمرح، فلما دهاها ما دهاها من غزو الفرس واليونان والرومان لها، ذهبت تنفس عن عذابها وحقدها وكآبتها بفكاهات مرة مملوءة بسموم اللذع والتهكم والسخرية من هؤلاء جميعا.

وكانت هذه السخرية الخبيثة تكلفهم أحيانا ثمنا غاليا، فقد كان القياصرة يغتاظون غيظا شديدا، فيقسون عليهم فى حكمهم، ومع ذلك لم ينتهوا عن هجائهم بل ظلوا

١- السخرية فى شعر البهاء زهير، د. محمد حسين عبد الحليم/٢٣.
٢- راجع: الشعر وطوابعه الشعبية على مر العصور، د. شوقى ضيف/١٨٠.
٣- الفكاهة فى مصر/٢٢ بتصرف يسير.
٤- راجع: الأدب الساخر، د. نبيل راغب/٩٥.
٥- راجع: الفكاهة والضحك، د. شاكر عبد الحميد/٢٢٣ بتصرف.

يقاومونهم ويسخرون منهم، وكأن مزاجهم الفكه الساخر كان يضطرهم ويلزمهم بالدوام على هذا الدفاع الساخر" [1] .

ولعل الذى ساعد المصرى على تأصل هذه الروح فيه "ما عرف به من اللباقة وبراعة الحديث، ولطف النادرة، يضاف إلى هذا أنه ذكى، لماح، سريع البديهة خفيف الروح، ماهر فى التلاعب بالألفاظ وتقليب المعاني" [2].

ولذلك أصبح الشعب المصرى شعبا متميزا بهذا اللون التعبيرى بين شعوب العالم "ولاشك أن طبيعة الحياة المصرية الهادئة، وجوها الصافي، ونيلها الذى يشيع التفاؤل والأمل فى النفوس، كل هذا قد هيأ النفس المصرية للانفتاح، والتبسط، فلا يستبد بها الحزن والألم، ولا تستسلم ليأس، وتواجه ما تعانيه بروح قوية وثابة... ولقد تعرض الشعب المصرى – رغم حنان الطبيعة عليه – لهجمات شرسة من أجناس دخيلة فرضت عليه نفسها بجهل وغطرسة وحماقة، وكان يحس أنه فى واقع الأمر أسمى من الغزاة عقلا وروحا، أو أنه لا يقل عنهم ذكاء ووعيا بالحياة، وقد سبقهم جميعا إلى إنشاء الحضارات وخلق معالم ثقافية عالية، رأى البشر فيها نموذجا قياديا للحضارات والثقافات الإنسانية" [3] .

وهذا يعنى أن السخرية فى كيان الشعب المصرى "تمثل استعلاء على الأجنبي واستخفافا به، وتعبيرا عن رفض الهزيمة التى منى بها المسئولون عن حمايته... وهى نوع من مقاومة الأجنبى ، والحاكم الجاهل المتسلط، المقاومة الواعية...التى هى نوع من الانتقام من البطش والجور، وإشاعة روح هذا الانتقام على أوسع مدى حتى يكون الشعب كله بجميع أبنائه، وجميع طوائفه على مستوى الموقف" [4] .

١- الفكاهة فى مصر، د. شوقى ضيف/٢٣، ٢٤ .
٢- السخرية فى شعر البهاء زهير، د. محمد حسين عبد الحليم/٢٣ ، وراجع: الفكاهة فى مصر، د. ضيف/٢٢، والأدب الساخر، د. نبيل راغب/١٠٧ .
٣- السخرية فى أدب المازنى، د. حامد الهوال/٧٥، ٧٦ .
٤- المصدر السابق/٧٨ بتصرف.

ولقد كان لهذه الروح فضل كبير فى طمس كبرياء الطغاة والغزاة، والتقليل من قدرهم على مر العصور، بحيث أصبح الشعب ينظر إليهم نظرة ازدراء واحتقار وتفاهة، ثم إنها كانت وسيلة ناجحة للتخفيف عن نفوس المصريين، وتخليصها من آلامها، أو على الأقل تهدئة هذه الآلام ، وأحيانا أخرى كانت تبعث فيهم روح المقاومة والصبر على المشاق والتماسك أمام الأحداث العظام.

وسوف نرى هذه الروح الفكهة الساخرة، المتمردة على كل اعوجاج أو نقص فى أية ناحية من نواحى الحياة، من خلال دراستنا للسخرية فى مصر عبر عصورها الإسلامية المتعاقبة، والتى تدل – فى وضوح – على "حرص المصريين على عناصر المرح والفكاهة والسخرية فى حياتهم اليومية، مهما كانت الضغوط المحيطة بهم إذ إنه من الصعب تصور الشخصية المصرية بدون هذه العناصر الحيوية المشكلة لها"[1]

السخرية فى الشعر الفاطمي:

عندما فتح المسلمون مصر بقيادة عمرو بن العاص عام ١٩هـ الموافق ٦٤١م لم يجدوا من المصريين سوى الترحيب بهذا القدوم ؛ لأنهم وجدوا فيهم المخلص لهم من ظلم الدولة البيزنطية (الرومان) ، كما أنهم وجدوا فيهم الأمل الذى سيردهم إلى استقلالهم وحريتهم الدينية[2] .

ومنذ هذا التاريخ ، تبدأ مصر مرحلة جديدة فى تاريخها، وهى مرحلة الإسلام، فقد أصبحت ولاية عربية تتبع الخلافة الإسلامية.

وقد اعتاد "المؤرخون على تخصيص اسم مصر الإسلامية للمرحلة الزمنية الواقعة بين فتح العرب مصر سنة ٦٤١م واستيلاء الأتراك العثمانيين عليها سنة ١٥١٧م، وهو تخصيص عملى ومعقول يستند فيما يستند إلى الصفة العربية الغالبة على المجتمع المصرى

١- الأدب الساخر، د. نبيل راغب/١٠٨ .

٢- راجع: عصر الدول والإمارات (مصر)، د. شوقى ضيف/١٤، ط٢ دار المعارف ١٩٩٠م.

الإسلامى والجهاز الحكومى الرسمى بالعاصمة المصرية الإسلامية فى معظم هذه المرحلة، مع العلم باستمرار الصفة الإسلامية العامة على مصر قبل الفتح التركى العثماني، وبعده فصاعدا حتى اليوم" [١] .

وتمر الأيام، وتمضى الأعوام، وتصبح مصر ولاية مستقلة عن الخلافة العباسية فى عهد "أحمد بن طولون ٢٥٤هـ - ٢٩٢هـ" ، وفى هذا العهد "بزغ نجم شاعر ساخر، عرف بلقب "الجمل الأكبر" [٢] ، وكان نديما للأمراء، يروى لهم النوادر والملح التى دارت حول البخلاء والتنابلة والطفيليين" [٣] .

ثم يأتى عهد الدولة الإخشيدية، ويظهر على الساحة شاعر ساخر آخر، وقد لقب "بالجمل الأصغر" وكان يتمتع بنفس خفة هذه الروح الساخرة.

لكن نجم السخرية فى الدولة الإخشيدية كان للشاعر الذى لقب بسيبويه المصري وقد تظاهر بالحمق والجنون كى يستطيع أن ينقد بقصائده اللاذعة الدول الأجنبية وموظفيها المرتزقة نقدا زاخرا بالمرارة والخبث ، ومنفسا عما يقع على الناس من ظلم وبطش فى هذه العهود الإقطاعية الجائرة ، ولم يكن أحد فى عصره إلا ويخشى معرة لسانه؛ إذ كان يرمى بالكلام ، وكأنه يرمى بالسهام، وإن كان ذلك لم يصلنا منه إلا الفتات الزهيد[٤].

ومما يذكر للدولة الإخشيدية: إنها اعتنت بالعلم والأدب، وكان لأمرائها دور بارز فى إنهاض الشعر والأدب ، فقد كان الإخشيد[٥] ما جدا ممدحا كريما، وكان كافور يحب العلم، ويشجع العلماء على التأليف، ويصطفى من الشعراء من يمدحه ويبرز فضله[٦] .

١- تاريخ وآثار مصر الإسلامية، هيئة الاستعلامات المصرية ، ج٦٣٣/٣، طبعة الهيئة العامة للاستعلامات، القاهرة ١٩٧٧م.

٢- هو أبو عبد الله الحسن بن عبد السلام، من شعراء الفسطاط فى الدولة الطولونية، توفى عام ٢٥٨هـ .

٣- الأدب الساخر/٢٦، وراجع: الفكاهة فى مصر/٢٧ .

٤- راجع: الأدب الساخر، د. نبيل راغب/٢٦، ٢٧، والفكاهة فى مصر، د. شوقى ضيف/٢٨،/٢٩ .

٥- هو محمد بن طغج بن جف الفرغانى التركي، ولد سنة ٢٦٨هـ، وتوفى سنة ٣٣٤هـ .

٦- راجع: الشعر المصرى من الفتح الإسلامى إلى مطلع العصر الحديث، د. محمد أحمد سلامة/١٣٣، ١٣٤، الطبعة الأولى، دار الطباعة المحمدية بالأزهر ١٤٠١هـ - ١٩٨٠م.

وكان هذا الأمر مغريا لكثير من الشعراء والأدباء، مما دفع كثيرا منهم إلى الانتقال إلى مصر، رغبة فى النوال من خيراتها، أو تولى بعض الوظائف والمناصب المهمة بها.

وقد كان "المتنبى" [1] المداح الأول، ممن وفد إلى مصر؛ طلبا للمجد والسيادة فى عهد كافور الإخشيدي، وقد بذل له كثيرا من مدائحه، ولكنه انقلب عليه فى نهاية الأمر وهجاه بأسلوب كله تهكم وسخرية.

ولعل من أشهر ما هجاه به قوله- وقد نظر إلى شقوق فى رجله[2] :-

أريك الرضى لو أخفت النفس خافيا	وما أنا عن نفسى ولا عنك راضيا
أمينا، وإخلافا، وغدرا ، وخسة وجبنا	أشخصا لحت لى أم مخازيا؟
وتعجبنى رجلاك فى النعل	إننى رأيتك ذا نعل إذا كنت حافيا
وإنك لا تدرى ألونك أسود	من الجهل أم قد صار أبيض صافيا
ويذكرنى تخييط كعبك شقه	ومشيك فى ثوب من الزيت عاريا
ومثلك يؤتى من بلاد بعيدة	ليضحك ربات الحداد البواكيا

فالمتنبى - فى هذه الأبيات - يسخر من كافور الإخشيدى سخرية موجعة فهو يعيره بسواد لونه لكونه كان عبدا أسود لبعض أهل مصر اشتراه منه الإخشيد وهو لغلظ جلد رجله وسواده تحسبه منتعلا وإن كان حافيا.

ويلتمس الشاعر لسواد لونه علة وسببا، فيرجع ذلك إلى جهله، ويسخر المتنبى - كذلك - من تلك الشقوق والأخاديد الكثيرة المنتشرة فى رجلى كافور، فهى تذكره بوجوب تخييط هذه الشقوق.

١- هو أبو الطيب أحمد بن الحسين الجعفي، ولد فى الكوفة سنة ٣٠٣هـ، وقتل سنة ٣٥٤هـ غرب بغداد ينظر فى الترجمة: وفيات الأعيان، ج١/١٢٠ .

٢- ديوان أبى الطيب المتنبى، شرح/مصطفى سبتى، ج٢/٢٦٤، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان ١٩٨٦م، "الطويل".

وتزداد حدة السخرية، حينما يجعل منه – فى البيت الأخير – قردا يؤتى به من بلاد الله البعيدة، ليضحك النساء الباكيات على من فقدنه من أحبابهن.

وقد اتسم الشعر المصرى فى العهد الإخشيدى باليسر والسهولة، واتضحت الشخصية المصرية فى شعر المصريين بصورة أبرز وأعمق مما كانت عليه قبل ذلك فى عهود الولاة الذين حكموا البلاد.

وبعد موت كافور الإخشيدى عام ٣٥٧هـ، حدثت اضطرابات شديدة فى الدولة، مما جعل الفرصة مهيأة أمام جيوش المعز لدين الله الفاطمى أن تزحف من الغرب بقيادة جوهر الصقلى سنة ٣٥٨هـ [١] فاستولت على البلاد، وانقرضت بذلك الدولة الإخشيدية وقامت الدولة الفاطمية على أنقاضها[٢] .

ونسبة الدولة الفاطمية ترجع إلى أسرة إسماعيل بن جعفر الصادق[٣] وعندما قامت الدولة الفاطمية بمصر، نجد أنهم لم يغزوها بسيوفهم فقط، وإنما غزوها- مع ذلك – بعقائدهم وميولهم، واستعانوا على قيام دولتهم بالسيف والقلم والسياسة والعلم والدين والأدب جميعا[٤] .

وقد ترتب على وجود هذه الحملة المتكاملة فى شتى المجالات، أن استقرت الأمور فى مصر، مما أدى إلى انتعاش الأدب، ولاسيما فى عصر "الآمر"، الذى ظهر فيه كثير من الشعراء المجيدين، كما بدا اهتمام الخلفاء أنفسهم بالشعر، وتشجيعهم له.

"ولقد دعا إلى نهوض الشعر فى العصر الفاطمي، ذلك الميل من الخلفاء الفاطميين إلى منافسة الدولة العباسية فى بغداد، وكأنها نصبت نفسها ندا لها فكل مظاهر الخلافة بجلالها وفخامتها فى بغداد كان لها نظيرها فى مصر، بل أكثر مما كان لها هناك" [٥].

١- تنظر ترجمته في: وفيات الأعيان، ج١/٣٧٥ .

٢- راجع: عصر الدول والإمارات(مصر)، د. شوقى ضيف/٢٠، ٢١ .

٣- جعفر الصادق: هو عبد الله جعفر الصادق بن محمد الباقر بن على زين العابدين بن الحسين بن على بن أبى طالب (ض)، ولد سنة ٨٠هـ، وتوفى سنة ١٤٨هـ، ودفن بالبقيع. (وفيات الأعيان، ج١/٣٢٧).

٤- انظر: الشعر المصرى من الفتح الإسلامى إلى مطلع العصر الحديث، د.محمد أحمد سلامة/١٧٣ بتصرف يسير.

٥- مصر الشاعرة فى العصر الفاطمي، محمد عبد الغنى حسن/١٤، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٨٣م.

ولقد كثر الشعراء فى مصر فى العهد الفاطمى كثرة هائلة، وكان منهم على سبيل المثال: تميم بن المعز الفاطمي، والمهذب بن الزبير، والرشيد بن الزبير، وعمارة اليمني، وصريع الدلاء، وظافر الحداد، وابن قلاقس، وأبو الرقعمق، وغيرهم كثيرون.

وقد نظم هؤلاء الشعراء شعرهم فى كل الأغراض التى كان ينظم فيها السابقون وزادوا من الأغراض ما فرضته عليهم ظروف العصر وطبيعة المرحلة كالدعوة إلى طاعة الأئمة ، باعتبارهم أولى الأمر.

ومن الأمور الملحوظة أن الشعراء الفاطميين، قد تفننوا فى السخرية من الخلفاء الفاطميين، وشككوا فى نسبهم إلى السيدة فاطمة الزهراء، خاصة أن من خلفائهم من ادعى علم الغيب، بل الألوهية (كالخليفة الحاكم)، كذلك امتدت السخرية لتشمل أساليب إدارتهم للبلاد، خاصة توظيفهم لليهود فى المناصب الكبرى، مما اضطر الخلفاء فى النهاية إلى إبعادهم عن أعمال الدولة ودواوينها[1].

ومما يمثل به لسخرية المصريين من الفاطميين، ومن نسبتهم إلى السيدة فاطمة الزهراء: ما يذكر أن الحاكم بأمر الله كان مضطرب الفكر، فاسد الطوية مدعيا علم الغيب مما دفع أحد المصريين أن يلقى على منبره يوم الجمعة ببطاقة فيها شعر صريح، فيه تنديد بسياسته، وبيان لموقف الناس منه، فقرأها، فإذا مكتوب فيها[2] :

الظلم والجور قد رضينا ... وليس بالكفر والحماقة

إن كنت أعطيت علم غيب ... فقل لنا كاتب البطاقة

والشاعر فى البيتين يسجل ظلمهم للرعية، وأنهم يسومونها الجور والخسف كما يسجل رأى المصريين فى معتقداتهم ، والتى تصور انحرافهم عن جادة الدين ولذلك ظل المصريون بعيدين عن عقيدتهم ولم تشع بين أبناء الشعب.

١- انظر: الأدب الساخر، د. نبيل راغب/٢٨، والفكاهة فى مصر، د. شوقى ضيف/٣٠، ٣١ .

٢- انظر: الشعر وطوابعه الشعبية على مر العصور، د. شوقى ضيف/١٦٦ ، "مجزوء البسيط".

وعندما يرى المصريون أن الفاطميين قد أكثروا من الاستعانة باليهود في بعض المهام الإدارية في الدولة، يثورون على هذا الوضع، ويعلنون رفضهم واحتجاجهم عليه في صور ساخرة.

ومن أمثلة ذلك: أن "صدقة بن يوسف الفلاحي اليهودي"، تولى وزيرا في عهد المستنصر، ثم انضم إليه يهودي آخر ليساعده، ويدعى "أبو سعد التستري"،

كما تولى "يعقوب بن كلس" وزيرا في عهد "العزيز بن المعز" فثار الشعراء المصريون على ذلك، ونظموا في ذلك شعرا ساخرا كثيرا.

ومنه قول بعضهم[1]:

سود هذا الزمان قد بلغوا غايـة آمالهم وقد ملكوا

العز فيهم والمال عندهم ومنهم المستشار والملك

والبيتان يفيضان بالسخرية القاتلة من الفاطميين، ولأنها نقد هادف وبناء فقد استجاب القادة الفاطميون لها، ونزلوا على رغبة الشعب، وعزلوا اليهود من مناصبهم، وأسندوها إلى من يستحقونها من رجال وكبار الدولة الشيعيين.

وعلى مستوى السخرية من الأشخاص ، نجد "ابن قادوس الدمياطي"[2] يتهكم ويسخر من شاعر أسود، كان صديقا له، يقول فيه[3] :

إن قلت من نار خلقت (م) وفقت كل الناس فهما

قلنا: صدقت، فما الذي أطفاك حتى صرت فحما

فهو يسخر من سواد بشرة صديقه هذا، ويعطى لهذا السواد صورة مقززة منفرة في الهيئة ، حيث يجعله فحما.

١- انظر: الفكاهة في الأدب، د. أحمد الحوفي، ج١٠٤/٢ ، "مجزوء البسيط".

٢- هو محمد بن إسماعيل، أصله من دمياط، ونشأته الأولى بها، ثم هاجر إلى القاهرة، والتحق بديوان الإنشاء الفاطمي، حتى صار أحد رجال الملك الصالح، ومن شعرائه المقربين، وظل في ديوان الإنشاء حتى مات سنة ٥٥١هـ أو ٥٥٣هـ فوات الوفيات ج١٠٠/٤ وما بعدها .

٣- انظر: الفكاهة في مصر، د. شوقي ضيف/٣٢، "مجزوء الكامل".

وهى سخرية لاذعة، وقد اعتمدت فى ذلك على رسم الصورة بأسلوب هزلى مضحك.

ويقول"ظافر الحداد"[1]وقد ابتلى بحلاق قبيح الوجه والصنعة، اسمه "مسعود" فأخذ يصوره بصورة مثيرة، للضحك والسخرية، يقول فيه[2] :

لا أسـعد الله مسعودا فصنعته ... كوجهه كل قبح منه مختصر

لا يحلق الرأس إلا مرة، وبها ... تغنيه عن عودة ما مده العمر

لأن ألطف مس من أناملـه ... سلخ، وهل بعد سلخ ينبت الشعر

فلو نوى حلق رأس فى ضمائره ... بفطنة كاد منه المخ ينتثر[3]

فالمبالغة التى تبدو فى وصف هذا الحلاق بالثقل، تثير ألوانا من السخرية فكون كل قبح فى الوجود مختصر من قبحه، وكون من يحلق رأسه عنده، لا يحلق إلا مرة واحدة فى العمر، لكون هذا الحلاق يسلخ الشعر من جلده، فلا يرجى استنبات شعر له بعد ذلك وكونه لو نوى – مجرد نية فقط – أن يحلق رأس إنسان ما، فإن مخ المحلوق له، سوف يتناثر من ثقل تفكيره... فهذه أمور كلها تثير السخرية، وتجعل من هذا الحلاق عبئا ثقيلا، وهما لا يطاق.

ونلحظ استغلال الشاعر لاسم المسخور منه فى البيت الأول لإضفاء مزيد من السخرية والتهكم به، كما أنه اعتمد فى سخريته على حسن التعليل، الذى أكسب السخرية لونا من الإيجاع والإيلام.

وهكذا نجد – من خلال ما تقدم – أن خيوط السخرية ما زالت ممتدة، وأن سلاحها ما زال مشهرا فى العصر الفاطمى ؛ نظرا لوجود موجبها، وتوفر الباعث عليها.

١- هو أبو المنصور ظافر بن القاسم بن منصور بن عبد الله بن خلف بن عبد الغنى الجذامى الإسكندراني، ولد فى الإسكندرية، وبها نشأ، وكان حدادا، وزار مصر وقال فيها شعرا جيدا، وتوفى سنة ٥٢٨هـ (ينظر فى الترجمة: - وفيات الأعيان ، ج٢/٥٤٠ - شذرات الذهب فى أخبار من ذهب،ابن العماد الحنبلي،مجلد٢ جزء٤ /٩١ ، دار إحياء التراث العربى – بيروت.

٢- انظر: مصر الشاعرة فى العصر الفاطمي، محمد عبد الغنى حسن/٢٧٤، "مجزوء التام".

٣- ينتثر: يتفرق إلى فتات حول الرأس (اللسان ج١٩١/٥).

ونلحظ أن شعر السخرية – هنا – ركز على رصد الأحداث السياسية والمفاسد الإدارية ، وخاصة ما يتصل منها بالوظائف ، كما نلحظ اتساع نطاق التنابز بالألقاب- فى الجانب الاجتماعى – كنوع من محاولات التطوير فى مجال الضحك.

وكذلك اتسمت السخرية فى هذا العصر بالشدة والقسوة والهجوم على الخصم فى عنف شديد، كل ذلك من خلال استغلالهم لأسلوب التورية ، وحسن التعليل.

السخرية فى الشعر الأيوبى:

حل الضعف والفساد بالدولة الفاطمية فى آخر عهدها، وظهر على الساحة عدو متربص، ربما أراد أن يصل إلى مصر نفسها، وهم الصليبيون، فما كان من الخليفة الفاطمى "العاضد" فى ذلك الوقت ٥٦٤هـ، إلا أن أرسل إلى نور الدين محمود مستغيثا ومستقدما إياه؛ ليحتل مصر بقواده، وينقذها من جنود الفرنج؛ لأن الدولة الفاطمية – حينئذ – كانت فى وضع لا يؤهلها لمقاومتهم، فدفعه حبه لمصر إلى التخلص من الصليبيين بهذه الطريقة، وبذلك قامت الدولة الأيوبية فى مصر[1] وأخذت تجد فى إصلاح أحوال البلاد فى مختلف المجالات[2]. فلما كانت سنة ٥٨٣هـ أعد صلاح الدين الأيوبى جيشا ضخما لملاقاة الصليبيين، والتقى الجيشان فى "حطين" المشهورة فى غربى طبرية، وفيها محق الجيش الصليبى محقا.

وفى الناحية الأدبية ازدهر الشعر فى العصر الأيوبي، وتحقق له من العوامل ما يدعو إلى ظهور روح الابتكار والتميز فيه، فقد كانت "موحيات الشعر فى هذا العصر كثيرة متنوعة ، وخصوصا أن العدو بالمرصاد على أبواب البلاد ، وحين تقع مدينة يكون الاستنجاد ، وإذا كان فى معارك، وما أكثرها ، يكون الحث والتحريض، وإذا استخلصوا بعض المدن تكون البشارة والتهنئات"[3].

١- الأيوبيون: أسرة كردية، أصلها من بلدة "دوين" فى آخر إقليم أذربيجان، وبها ولد صلاح الدين ، وأبوه من قبله، ثم هاجروا إلى بغداد.

٢- راجع: عصر الدول والإمارات (مصر) ، د. شوقى ضيف/٢٥، والشعر المصرى من الفتح الإسلامى إلى مطلع العصر الحديث، د. محمد أحمد سلامة/٢١٧ .

٣- الشعر المصرى من الفتح الإسلامى إلى مطلع العصر الحديث، د. محمد أحمد سلامة/٢٣١ .

كذلك ، نجد أنه على الرغم من الحروب الصليبية- فى هذا العصر- إلا أن المصريين لم تفارقهم روح الفكاهة والمرح والسخرية ، فهى النبع الذى لا يجف فى نفوسهم مهما شغلوا بحروب وأحداث [1].

ومن شعراء الدولة الأيوبية: البهاء زهير، وابن مطروح، وابن النبيه المصري، وابن سناء الملك، والقاضى الفاضل، والعماد الأصفهاني، وابن الساعاتي، وغيرهم كثيرون.

ويعد "البهاء زهير" من أعلام الشعراء الساخرين فى العصر الأيوبي؛ إذ نراه يسخر من كل موقف شاذ، ومن كل سلوك أو تصرف يخالف المنطق السليم.

فنراه يسخر من بعض الحكام والساسة فى زمانه، وإن كانت السخرية السياسية قليلة فى شعره . يقول فى أحدهم[2] :

مماليـــك مولانـــا الأمـــير وخيلـــه كـــــلاب إذا شاهدتهـــــم وعظـــــام

لقـــد ضـــاع فـــيهم مالـــه إذ تـــراهم ولـــيس عجيبـــا أن يـــضيع حـــرام

فالبهاء - هنا - يسخر من هذا الأمير الذى أصبح خدمه، والمملوكون له كالكلاب فى الشراهة، وقبح المنظر، ونجاسة الأجسام، كما أصبحت الخيل التى يملكها ضعيفة هزيلة، وكأنها هياكل من العظام، فقد ضاع فى هذه وتلك ما دفعه هذا الأمير فى شرائها من مال، وحقيق بهذا المال أن يضيع؛ لأن مصدره من حرام فقد استله هذا الأمير من أقوات الناس.

وهذه سخرية مرة ولاذعة من هذا الأمير، ومنبعها: أن الشاعر جعل ما تحت يد الأمير كلابا وعظاما، كما جعل ماله كله من حرام.

١- راجع: - الفكاهة فى مصر، د. شوقى ضيف/٣٤ .- السخرية فى أدب المازني، د.حامد الهوال/٨٥
- الأدب الساخر، د. نبيل راغب/٢٨ .

٢- ديوان البهاء زهير/٢٤٩، ت: محمد أبو الفضل إبراهيم، ومحمد طاهر الجبلاوي، ط/دار المعارف،الطويل.

وهذا "ابن عنين" [١] جاء من اليمن إلى مصر، فطلبوا منه زكاة ما معه من عروض التجارة، فقال يسخر من الملك العزيز صاحب مصر[٢] :

ما كل من يتسمى بالعزيز لها أهل ولا كل برق سحبه غدقة

بين العزيزين[٣] بون في فعالهما فذاك يعطي،وهذا يأخذ الصدقة

فابن عنين يسخر فى بيتيه هذين من حاكم مصر ومن قوانينه الجائرة التى تهدف إلى اغتصاب الأموال من أصحابها دون حق، وكأن السلطان بذلك يأخذ صدقة من هؤلاء.

وقد سلك الشاعر فى سخريته وتهكمه مسلك المقارنة بين حالتين: بين حالة عزيز اليمن الذى يعطى ويكرم الوافدين إلى بلاده ، وبين حالة عزيز مصر الذى يسلب الناس أموالهم دون سند من حق أو شرعية.

وهذه الصورة المقارنة مؤلمة للغاية ، بل إنها لتبكى فى بعض الأحيان.

ومن الشعراء الساخرين فى هذا العصر: ابن سناء الملك[٤]:

يقول ساخرا من صديق بخيل[٥] :

صديقى يرى التوفيق فى البخل وحده فمن ذاك يدعو نفسه بالموفق

يود لو أن الدهر صيف مهجر ليلبس فيه فرد ثوب ممزق[٦]

فهذه سخرية موجعة من هذا البخيل الذى يرى أن توفيق الإنسان فى الحياة

١- هو شرف الدين أبو المحاسن محمد بن نصر بن الحسين، ولد بدمشق سنة ٥٤٩هـ، وتلقى ثقافته فيها، وقد وصل إلى درجة عالية فى إتقان الشعر، ونظم فى مختلف الأغراض، والسخرية فى شعره كثيرة، وتوفى بدمشق ٦٣٠هـ. (ينظر فى الترجمة: وفيات الأعيان، ج١٤/٥، ت: د. إحسان عباس، دار صادر بيروت ١٩٦٨م)

٢- ديوان ابن عنين، تحقيق/خليل مردم بك/٢٢٣، مطبعة دمشق ١٩٤٦م، "البسيط التام".

٣- العزيزان هما: الملك العزيز طغتكين بن أيوب صاحب اليمن، والملك العزيز عثمان صاحب مصر.

٤- هو القاضى السعيد أبو القاسم هبة الله بن القاضى الرشيد أبى الفضل بن جعفر بن المعتمد بن سناء الملك الشاعر المصرى المشهور، ولد فى القاهرة سنة ٥٥٠هـ، وكان كثير التنعم، وافر السعادة محظوظا، وقد مات سنة ٦٠٨هـ الموافق ١٢١٢م. (وفيات الأعيان، ج٦٦/٦).

٥- ديوان ابن سناء الملك، تحقيق: محمد إبراهيم نصر، مراجعة: حسين محمد نصار، ج٤٧٩/٢، الناشر: دار الكتاب العربى للطباعة والنشر بالقاهرة١٩٦٩م.

٦- البيتان من البحر الطويل.

يتجلى فى اتصافه بالبخل والحرص، لذا فهو – لبخله – يتمنى أن لو كان الدهر كله صيفا محرقا، حتى يشبع باعثة البخل فى نفسه، بارتداء ثوب واحد ممزق.

وهى صورة مزرية، تعكس طبائع هذا البخيل، ومرض نفسه فى أسلوب هزلى مضحك، يثير كثيرا من كوامن السخرية والتهكم.

وهكذا نجد تيار السخرية المعتدلة فى هذا العصر يصور شعور الشعوب ومشاعرهم تجاه الآخرين، بصورة تبرز ملامح الروح المصرية فى لغتها وعاداتها وتقاليدها بصورة واضحة المعالم.

ونلحظ أن الشعراء أوغلوا فى استخدام التورية الخفيفة، ومالوا بسخريتهم نحو التظرف والمزح والدعابة، مما هيأ الفرصة لظهور كثير من الألفاظ والأساليب الدارجة فى هذا العصر.

والفرق الظاهر بين السخرية فى العصر الفاطمى والسخرية فى العصر الأيوبي.

أنها فى الأول: اتسمت بالعنف والشدة فى هجومها على السلبيات والأفراد؛ وذلك بسبب شراسة المفاسد والمساوئ التى كانت تفتك بالدولة.

أما فى العصر الأيوبي: فقد اتسمت باللين والاعتدال، ومالت نحو المزح والدعابة والسر فى ذلك: هو استقرار الأمور نسبيا فى هذا العصر عما سبقه، كما أن عوامل الإصلاح قد بدأت تؤتى ثمارها فيه[1].

السخرية فى شعر العصر المملوكي:

اعتلى المماليك الترك عرش البلاد بعد وفاة السلطان "نجم الدين الأيوبي" من خلال "شجرة الدر" التى أسلمت الحكم والسلطان إلى "عز الدين أيبك" القائد التركي وظلوا من هذا التاريخ، وهو عام ٦٤٨هـ يحكمون مصر إلى الفتح العثمانى لها عام ٩٢٢هـ.

وكانت "شجرة الدر" بذلك هى الصلة بين الدولتين (الأيوبية، والمملوكية) ومرحلة انتقال من العهد الأيوبى إلى العهد المملوكي[2].

١- راجع: عصر الدول والإمارات (مصر) د. شوقى ضيف/٢٥.

٢- راجع: الشعر المصرى من الفتح الإسلامى إلى مطلع العصر الحديث، د. محمد أحمد سلامة /٢٧٩، عصر الدول والإمارات (مصر)، د. شوقى ضيف/٣٤.

وقد عاش الناس فى هذا المجتمع الجديد حياة تظهر عليها آثار الطبقية البغيضة فهناك الأغنياء المتخمين بالأموال، والمتعين بألوان النعيم، وهناك طبقة التجار والحرفيين وهناك طبقة الفقراء الذين تعوزهم الحاجة، ويرهقهم شبح الخوف والمسغبة.

وقد "تأثر شعراء العصر المملوكى بكل ذلك، وعاشوا تلك التجارب، وعبروا عنها تعبيرا يتسم بالصدق، وينم عن الواقع ، فالشاعر يمدح لأن الممدوح أهل للمدح وينقد ليوجه المجتمع، ويهجو ويسخر إذا كان من يسلط عليه لسانه فى حاجة إلى توجيه أو تنديد" [1] .

وفى ظل هؤلاء الحكام الأغراب الذين لا يفهمون معانى الشعر فقد الشعر أهم دافع من دوافع تجويده، وهو التشجيع من جانب الحكام والأمراء، مما جعل الاقتصار على مهنة الشعر أمرا لا يقوم بتكاليف الحياة، ولا يغنى صاحبه من جوع، مما دفع الشعراء – فى هذا العهد – إلى العمل بحرف أهليهم وأقاربهم، كالجزار والحمامى، واشتغل كثير منهم – كذلك – بالتأليف وجمع الموسوعات، كابن حجة الحموى، وصلاح الدين الصفدى.

وقد ظهرت فى هذا العصر ألوان من الفكاهة والمرح، التى أفاضتها الروح المصرية التى تعشق هذا الفن، و"لعل هذه الروح المصرية الفكهة لم تتسع فى عصر كما اتسعت فى عصر المماليك، إذ فرغت مصر أو كادت من الحروب الصليبية وخلد المصريون إلى رخاء شاعت فيه فنون من اللهو واللعب، وتفجرت ينابيع الفكاهة فى أنفسهم" [2].

وقد أغراهم هذا الفرح بأن "يعبروا عن سعادتهم، ويتخلصوا من كبتهم الذى عانوا منه فى الماضي، وعن موقفهم فى نفس الوقت من المفارقات التى ما زالت قائمة، والتى جعلت من المماليك حكاما، ومن الأتراك سادة على البلاد" [3].

ونحن عندما ننظر إلى السخرية عند المصريين فى هذا العصر، نجد أنهم قد تفننوا فى ضروبها، حتى أصبح الشعر الساخر الضاحك سمة مميزة لنشاط معظم الأدباء.

١- الشعر المصرى من الفتح الإسلامى إلى مطلع العصر الحديث، د. محمد أحمد سلامة/٣١٩ بتصرف.
٢- الفكاهة فى مصر، د. شوقى ضيف/٤٥ .
٣- السخرية فى أدب المازني، د. حامد الهوال/٩٠ .

وقد امتدت هذه السخرية لتشمل الساسة والحكام الأجانب من الترك والمماليك وتراوحت السخرية بين التورية الذكية الخبيثة، وبين الهجاء القاسى الصريح[١] .

ومما يمكن أن نمثل به للسخرية هنا، أنه لما قتل "السلطان حسن" وكان فيه خلاعة ومجون، وحب للنساء، قال بعض الشعراء متهكما به، ساخرا منه[٢] :

*لما أتى "للعاديات" و"زلزلت" حفظ "النساء" وما قرا "للواقعة"

فقد استعان الشاعر ببعض سور القرآن الكريم، ليعبر بها عن هذا الشيطان الرجيم، وما يريد من سخرية منه ومن سيرته، وفى كلمة "الواقعة" تورية واضحة عن مقتله.

ومن السخرية من حكام الترك، قول بعضهم مستخدما التورية فى هجاء وزير يسمى "البباوى"[٣]:

قالوا "البباوى" قد وزر فقلت: كلا، لا وزر

الدهر كالدولاب لا يدور إلا بالبقر

فالشاعر هنا يستعين بآية قرآنية، هى قوله – تعالى-: "كلا لا وزر" [٤]ليسخر من تولية هذا الإنسان لأمر الوزارة ، وتبلغ سخريته غايتها فى بيته الثاني، إذ يجعله من ضمن البقر، ساخرا بذلك من جهله وغبائه.

* ومن السخرية قول "أبى الحسن الجزار" [٥] فى وصف داره[٦] :

دار خراب بها قد نزلت ولكن نزلت إلى السابعة

فلا فرق ما بين أن أكون بها أو أكون على القارعة

وأخشى بها أن أقيم الصلاة فتسجد حيطانها الراكعة

١- راجع: الأدب الساخر، د. نبيل راغب/٢٩٠ .

٢- الفكاهة فى مصر، د. شوقى ضيف/٤٥ .

٣- الفكاهة فى مصر/٤٥ ، "مجزوء الرجز".

٤- سورة القيامة، آية: ١١ .

٥- هو جمال الدين أبو الحسين يحيى بن عبد العظيم بن يحيى بن محمد بن على المعروف بالجزار،ولد بمدينة الفسطاط سنة ٦٠١هـ، ونشأ بها يعمل فى الجزارة كأبيه وأقاربه، وتكسب بالشعر، واتصل بالحكام والوزراء والأمراء ومدحهم، ونال جوائزهم ، وتوفى بالفسطاط ٦٧٩هـ . (ينظر: فوات الوفيات، محمد بن شاكر الكتبي، ج٢٧٧/٤).

٦- انظر: الفكاهة فى مصر، د. شوقى ضيف/٥٠ ، "المتقارب التام".

إذا مـــا قـــرأت "إذا زُلـــزلت" خـــشيت بـــأن تقـــرأ الواقعـــة

فالجزْر يتهكم ويسخر من داره أشد السخرية، وقد يكون قصد الجزْر من ذلك، أن يصور لنا الحياة الاقتصادية فى عصره ، ويتخذ من داره ومن نفسه مادة للإضحاك؛ حتى لا يفطن الحاكمون إلى أمره فيفتكون به، فالجزْر على ذلك لم يقصد بتحامقه الإضحاك للإضحاك والتسلية فحسب، إنما كان يرمى إلى شيء أبعد من ذلك، وهو تصوير حياة الشعب، وما هم فيه من ضيق، وما هم عليه من مجون وخلاعة[1] .

ولعل الذى ساعد الجزْر على النبوغ فى السخرية والتحامق، هو شخصيته المصرية التى تتميز بروح الفكاهة، وأنه كان سليط اللسان، شديد التهكم، فاستطاع بذلك أن يصور لنا الحياة المصرية بأسلوب سهل، وألفاظ رقيقة قريبة الفهم ، كثيرة التداول بين الناس.

وهذا "ابن دانيال الكحال" [2] يتحامق ويتهكم ويسخر من مجتمعه ، ومن الظلم الاجتماعى الذى حل به وبأمثاله ، حتى غدا على حال لا يحسد عليها. يقول عن نفسه وعن داره[3] :

حـشرات بيـت لـو تلقـت عـسكرا ولـى علـى الأعقـاب غـير مـرتد

هـذا ولى ثـوب تـراه مرقعـا مـن كـل لـون مثـل ريـش الهدهـد

لـولا الـشقاوة مـا ولـدت فليتنـى إذ كـان حظـى هكـذا لم أولـد

ولكيـف أرضـى بالحيـاة وهمتـى تـسمو وحظـى فـى الحـضيض الأوهـد

فهذه الأبيات – عند التأمل – نجد أنها تفيض بروح الفكاهة والمرح، وإن كان الشاعر يبث فيها من طرف خفى ألوانا من السخرية اللاذعة من الأوضاع الفاسدة فى مجتمعه، والتى تقضى على أصحاب الهمم العالية أن يعيشوا فى مذلة ومهانة، بينما يتمتع غيرهم من الجهال بطيبات الحياة.

١- راجع: طرائف العرب ونوادرهم، محمد رضوان/٢٠٣، ط/الهيئة المصرية العامة للكتاب ٢٠٠٠م (سلسلة مكتبة الأسرة).

٢- هو شمس الدين محمد بن دانيال الحكيم الكحال، ولد بأم الربيعين سنة ٦٤٦هـ، وقضى بها شبابه، ثم رحل من الموصل إلى القاهرة شابا، وعمل كحالا فى باب الفتوح، وأحب الأدب، واتصل بالأدباء ، وتوفى سنة ٧٠٨هـ الموافق ١٣١٠م (الأعلام، ج١٢/٦).

٣- انظر: طرائف العرب ونوادرهم ، محمد رضوان/٢١٨ ، "الكامل التام".

ومكمن السخرية هنا: فى تصوير هذه الحشرات الكثيرة التى تتزاحم فى بيت الشاعر، وفى هذا الثوب القديم المرقع بشتى الألوان، والذى صار يشبه الهدهد فى تعدد ألوانه، كما تكمن فى هذا التناقض الفج الذى شاع فى هذا العصر، حين يكون أصحاب الهمم العالية فى منزلة دنيئة حقيرة، لا تتناسب مع علو همتهم.

ويسخر "سراج الدين الوراق" [1] من حكام المماليك الذين لا يفهمون الأدب ولا يشجعون الأدباء، فيقول[2] :

وكان الناس إن مدحوا أثابوا ... وللكرماء بالمدح افتخار

وكان العذر من وقت لوقت ... فصرنا لا عطاء ولا اعتذار

فهو يسخر من هؤلاء الحكام الذين فقدوا ملكة التذوق، فمنعوا عطاءهم عن الشعراء، والمعروف أن الكريم إذا مدح أثاب،لكن الأوضاع عند هؤلاء الأتراك قد انقلبت، فأصبح الشاعر يمدحهم فلاهم يعطونه شيئا، ولاهم يقدمون إليه اعتذارا عن منع العطاء، وكأن الأدب قد ماتت دولته.

وهو بذلك يسخر من جهلهم بجمال الأدب ، ويسخر – كذلك – من بخلهم وبالتالى يسخر من سوء الحالة الاقتصادية التى جعلت الأديب لا يجنى بأدبه شيئا غير الحرمان والضياع.

هذا، وتدل سخرية المصريين من الأتراك على غضب المصريين عليهم، والنظر إليهم بعين الاحتقار؛ "لأنهم – فى نظرهم – أرقاء اشترُهم السادة بالمال، وهم ينسون أصولهم أو يتناسونها ، ويتغطرسون على المصريين، ويعجب المصريون حينما يصل بعض هؤلاء الأرقاء إلى الحكم" [3] ويعيثون فى الأرض بالفساد، ويجرعون أصحاب البلاد الأصليين غصص الألم والمرار، ويسعون إلى تحقيق الغنى والمجد لأنفسهم، بينما يعيش المصريون عيشة الفقر والمسغبة.

١- هو عمر بن محمد حسن،المولود سنة ٦١٥هـ،نشأ بالقاهرة،وتلقى ثقافته بها، ولزم الشعراء وصحبهم ، وتولى بعض مناصب الكتابة لبعض الأمراء، واتصل بالرؤساء ، وتوفى سنة ٦٩٥هـ (فوات الوفيات، ج٣/١٤٠).

٢- انظر:الشعر المصرى من الفتح الإسلامى إلى مطلع العصر الحديث، د. محمد أحمد سلامة /٣٧٤، ٣٧٥ ، "الوافر التام".

٣- الفكاهة فى الأدب، د. أحمد الحوفى ج١٠٢/٢ .

ومما يلحظ هنا: أن نطاق السخرية قد اتسع فى هذا العصر بصورة لم تتحقق لها من قبل؛ بسبب الرخاء والطمأنينة التى عمت المجتمع بعد انتهاء الحروب الصليبية التى أنهكت قوى الشعوب.

ومن مظاهر ذلك: أن الشعراء تفننوا فى استعمال التورية حتى اعتبرت من بدع هذا العصر؛ نظرا لما فيها من خفاء وخبث وعبث، مما يجعل الألفاظ كالأشراك التى تصيد الناس، فإذا هم ضحكة الجماهير.

وقد امتدت السخرية - فى هذا العصر - إلى نحو آخر، وهو أن الشعراء أثاروا الضحك على حياتهم، وعلى منازلهم، وملابسهم ومآكلهم ومشاربهم.

وفى هذا العصر تظهر روعة السخرية الضمنية، وسخرية الصورة الهادئة الوديعة وإن كانت لا تخلو من لذع عند التأمل.

السخرية فى شعر العصر العثماني[1]:

ظل المماليك فى هذا العصر يمثلون سلطة ثالثة فى البلاد، إلى جانب سلطتى الجند والولاة العثمانيين.

ولم تكن العلاقة بين هذه الثلاثة تقوم على المودة والمحبة والتعاون، وإنما كانت قائمة على الكره والتربص، مما جعل أحوال البلاد تسرع نحو الفساد والضياع.

ولعل مما "زاد الأمور سوءا أن العثمانيين اتبعوا سياسة مستمرة،وهى ألا يظل الوالى فى مصر إلا مدة قليلة، قد تكون عاما، وقد تكون أقل من عام، فلم يشعر الولاة بشيء من الاستقرار، وكأنهم كانوا يجيئون ليدخروا لأنفسهم شيئا من مال وكانوا يذهبون دون أن يفكروا فى أى إصلاح، ويكفى أن نعرف أنه حكم مصر قبل مجئ نابليون مائة وخمسون واليا عثمانيا"[2].

١- يبدأ العصر العثمانى من عام ٩٢٣هـ وينتهى عام ١٢١٣هـ.
٢- عصر الدول والإمارات (مصر)، د. شوقى ضيف/٤٢.

وأمر طبيعى أن تسوء الحالة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والأدبية فى مصر، باعتبار ذلك نتيجة حتمية لهذا الصراع السياسى الذى تصطلى به البلاد كما أن الأمر قد ازداد سوءا بإلغاء استعمال اللغة العربية فى دواوين الدولة، وجعل اللغة التركية هى اللغة الرسمية، مما أدى إلى إخماد شعلة العلم فى مصر، اللهم إلا ما كان من صمود الأزهر الشريف، ورفعه لواء اللغة العربية، وعلوم الدين رغم المحن والنكبات[1] .

وفى هذا الجو الذى يخيم عليه الظلام من كل جانب، لم تسكت ألسنة الشعراء وإنما عبرت عن الحالة السيئة فى البلاد بقدر الإمكان.

وقد جاء تعبيرهم عن ذلك متكلفا، ضيق الفكرة ، محدود النظر ، يسير على هدى السابقين ، يقلدهم ويجول فى إطارهم.

ومع ذلك فلم "يقض سوء الحالة الاقتصادية والعلمية والأدبية ، والظلام الذى شمل كل شيء فى عهد العثمانيين على الروح الفكهة لدى المصريين، فتراهم يسخرون سخريات سياسية من الولاة العثمانيين ، وسوء مسلكهم ... كما سخروا – قبل ذلك – من غطرسة الأتراك الفارغة، ونفختهم الكاذبة، وصورهم فى مواقف هزلية تدل على جهلهم وغبائهم" [2] .

وما يمثل به هنا : سخرية بعض المصريين من ولاة العثمانيين الذى جرى على الألسنة، وتناولته الجماهير فى حفلات صخبهم وسمرهم حتى إنهم أصبحوا بعد ذلك يستخدمونه فى مواقف مشابهة لشخصيات أخرى مصرية كما يقول الدكتور شوقى ضيف[3] .

فقد حدث أن غضب أهل القاهرة على وال عثمانى ، فتجمعوا تحت قصره ينادون عليه، معلنين غضبهم على بعض تصرفاته، قائلين[4] :

ـ يا باشا يا باشا يا عين القملة من قال لك تعمل دى العملة

١- انظر: الشعر المصرى من الفتح الإسلامى إلى مطلع العصر الحديث، د. محمد سلامة /٣٩٠ .
٢- السخرية فى أدب المازني، د. حامد الهوال/٩٤، ٩٥ بتصرف يسير.
٣- راجع: الفكاهة فى مصر/٨٩، والسخرية فى أدب المازني/٩٥ .
٤- انظر: الفكاهة فى مصر/٨٩ .

باشـــا يـــا باشـــا يـــا عـــين الـــصيرة مـــن قـــال لـــك تـــدبر دى التـــدبيرة[1]

ولعل من أكثر من تأثر بالحالة الاجتماعية فى عصر العثمانيين:"يوسف الشربيني"[2] الذى ألف قصيدة سماها "أبو شادوف" ، تصور أهل الريف وجهلهم وبؤس حياتهم، وموقف الحكومة منهم فى أسلوب ساخر، ثم إنه شرح هذه القصيدة فى كتاب أسماه "هز القحوف على شرح قصيدة أبى شادوف"، ومما قاله عن الفلاحين فيها قوله[3]:

وإن يريـــدوا المـــزح والمداعبـــة مثـــل كبـــاش أتـــت محاربـــة
تلـــق لهـــم حينئـــذ زعيقـــا تحـــسبه يـــا صـــاحبى نهيقـــا
وقـــوة القلـــب لهـــم طبيعـــة وقلـــة الخـــير لهـــم ذريعـــة
ومـــشيهم فـــى الحـــر مـــن غـــير وطـــا ونـــومهم فـــى الغـــيط مـــن غـــير غطـــا[4]
ومـــن تـــراه مـــنهم يـــصلى فـــذاك لا يعـــرف فـــرض الغـــسل
فقـــيههم ذوالكـــم والعمامـــة إذا أتـــى كأنـــه غمامـــة
وإن جثـــا يومـــا علـــى الجفـــان كأنـــه النـــاطور فـــى الغيطـــان[5]

فيوسف الشربينى يسخر من الفلاحين – فى هذه الأبيات – سخرية قاسية تصل إلى حد المبالغة والغلو، فهم فى مزحهم مثل الكباش المتناطحة، وأصواتهم العالية فى مزحهم كنهيق الحمير.

كما يسخر من غبائهم وجهلهم بأبسط أمور الشرع، وهو معرفة فرائض الغسل.

كذلك يسخر الشربينى من طبقة الفقهاء منهم، الذين يرتدون ثيابا ذات أكمام واسعة، وعمائم كبيرة، حتى ليبدو الواحد منهم كأنه غمامة.

١- الصيرة: حظيرة من خشب وأحجار تبنى للغنم والبقر (اللسان، ج٤/٤٧٨) .

٢- هو يوسف بن محمد بن عبد الجواد بن الأخضر الشربينى المصري، مؤلف كتاب "هز القحوف فى شرح قصيدة أبى شادوف"، وهو مولع بنقد عادات الريف المصرى فى عصره، توفى سنة ١٠٩٨هـ الموافق ١٦٨٧م. (انظر: الأعلام، ج٨/٢٥٢).

٣- انظر: الفكاهة فى الأدب، د. أحمد الحوفي، ج٢/٨٠ ، "الرجز التام".

٤- الوطا: المهاد الوطئ.

٥- جثا: جلس على ركبتيه. والجفان : جمع جفنة، وهى القصعة يوضع فيها الطعام. والناطور: هو حافظ الزرع والتمر والكرم، وليست بعربية.

ويسخر كذلك من شراهتهم ونهمهم عند تناول الطعام.

وهكذا يبدو الفلاح عند الشربيني فى صورة بدائية ساذجة يخيم عليها الجهل والفقر والمرض، وإن كان بعض النقاد قد انتقد هذا التشويه المزرى لصورة الفلاح المصري وجعل هذا الاتجاه حملة ظالمة عليه[1] فالفلاح هو سيد العالم الحقيقي، والوطن بدونه لا شيء؛ لأنه العنصر الأول فى تكوين عناصر الأمة وكيانها[2] .

ومن شعراء هذا العصر:الشيخ "حسن البدرى الحجازى" [3] .

يقول ساخرا من بعض علماء عصره الذين قدموا الدنيا على الدين[4] :

عن علماء عصرك لا تسألن ... فإن أحوالهم ظاهرة

نفعك من جانبهم منتف ... فى هذه الدنيا وفى الآخرة

قوم إذا لاح لهم مطمع ... كالأكلب العاقرة

والعمل الصالح ما بينهم ... همتهم عن فعله فاترة

فالشاعر - هنا - يتوجه بنقده وسخريته إلى علماء عصره، الذين ساءت أحوالهم وفسدت دواخلهم، وأصبح التماس النفع منهم فى أمور الدنيا وأمور الآخرة أمرا يصعب الحصول عليه.

ويسخر الشاعر- كذلك – من تصارعهم على مطامع الدنيا، كتصارع الكلاب على الجيفة المنتنة، بينما يقل عندهم العزم والمطمع فى الأعمال الصالحة .

وقد اعتمد الشاعر فى سخريته على أسلوب المقارنة، حيث قارن بين حال هؤلاء العلماء تجاه المطامع، وبين حالهم تجاه العمل الصالح، وبين أنهم يسرعون إلى الأول ويتقاعسون عن الثاني.

١- انظر: الفلاح فى الأدب العربي، محمد عبد الغنى حسن/٣، الدار المصرية للتأليف والترجمة، دار القلم، القاهرة ١٩٦٥م.

٢- انظر: جواهر الأدب، أحمد الهاشمى١/٢/ ٣٥٣، دار الكتب العلمية –بيروت- لبنان ١٩٩٩م.

٣- هو الشيخ العمدة المنتقد الفاضل الشاعر البليغ الصالح العفيف حسن البدرى الحجازى الأزهرى ، كان عالما فصيحا، وناقدا لأهل عصره ، وأغراض شعره متعددة ، وتوفى سنة ١١٢٧هـ . (انظر فى الترجمة: تاريخ الجبرتي، ج١/٧٥).

٤- تاريخ الجبرتي/ج١/ ٨٢ ، "البحر السريع".

ونلحظ- فى هذا العصر- أن السخرية، قد تركزت على الشعب، فصورت ما عليه الناس من جهل وفقر فى أسلوب فكاهى ساخر.

وبذلك استطاع الشعراء أن يحولوا مظاهر الشقاء والحرمان إلى هزل ودعابة.

هذا، والسخرية هنا ليست عميقة عمق الجرح الذى أصيبت به مصر فى تلك الفترة، وإنما جاءت سطحية تشبه سطحية النفوس التى عاشت فى تلك الفترة الزمنية.

السخرية فى شعر عصر النهضة الحديثة:

يبدأ العصر الحديث بمجئ الحملة الفرنسية إلى أرض مصر فى عام ١٧٩٨م على الأرجح[١] وينتهى بنهايات القرن التاسع عشر الميلادي[٢] .

ويمكن أن تقسم هذه الفترة الزمنية إلى مراحل ثلاثة متمايزة[٣] :

المرحلة الأولى:

وتبدأ من مجئ الحملة الفرنسية سنة ١٧٩٨م إلى ولاية إسماعيل سنة ١٨٦٢م بما فيها ولاية محمد على باشا، وعباس، وسعيد.

وفى هذه المرحلة ظل الشعر يحتذى نماذجه من العصر التركي، لأنه ظل ثمرة من ثمار قرائح أولئك الشيوخ الذين تربوا على هذه الثقافة التقليدية فى أنماطها الشاحبة ولم تستطع شرارة التغيير التى أحدثها عطاء الحملة الفرنسية أن تمس مناطق الخلق فى أعماق هؤلاء ، لأن هذا العطاء نفسه كان محصورا فى الجانب العلمى دون الجانب الأدبي[٤] .

المرحلة الثانية:

وتبدأ من ولاية إسماعيل سنة ١٨٦٢م إلى الثورة العرابية ١٨٨٢م.

١- تاريخ الأدب الحديث، د. حامد حفنى داود/٦، ٧، الطبعة الأولى، دار الطباعة المحمدية ، القاهرة ١٩٦٧م.
٢- عن اللغة والأدب والنقد، د. محمد أحمد العزب/١١٠، الطبعة الأولى، دار المعارف ١٩٨٠م.
٣- انظر المصدر السابق/١١٠: ١١٥ بتصرف.
٤- راجع: فصول فى الشعر ونقده د. شوقى ضيف/٢٥٨، ٢٥٩ .

وقد تردد الشعر فيها بين التقليد والتجديد ، فقد كانت النماذج التقليدية ما تزال قابضة على الأعناق، وإن بدا فيها وميض خافت من التجديد يأخذ طريقه إلى الظهور بفعل الإطلال البادئ على ثقافة الغرب، وما ترجم منها، وهو قليل فى هذه المرحلة، فهذه المرحلة بشكل أو بآخر كانت مختلفة عن المرحلة السابقة من حيث الشكل والمضمون.

المرحلة الثالثة:

وتبدأ هذه المرحلة من الثورة العرابية سنة ١٨٨٢م إلى أوائل القرن العشرين وكأنما كان القدر يدخر للشعر العربى الحديث فى هذه المرحلة ، هذه العبقرية المتمردة، عبقرية البارودي، الذى فجر حركة البعث، وأصل بها لبداية تاريخ المدارس الشعرية فى الأدب العربى الحديث.

وهذا يعنى أن الشعر – قبل البارودى – ظل مترديا فى الأخاديد والخنادق التى كان يتعثر فيها فى العصر التركي، مما جعل البحث عن شاعر تقرأ شعره فتعجب به ضربا من العبث، فقد تبلدت الخواطر، وضاقت أغراض الشعراء ومعانيهم.

ولكن الشعراء فى عصر النهضة "تجاوزوا بأذواقهم النماذج المأثورة عن العصرين العثمانى والمملوكي، والتفتوا إلى أزهى عصور الشعر العربى القديم يقرأون ويستوعبون ويتمثلون فى نتاجهم" [١].

وإذا نظرنا إلى ميدان الأدب الساخر فى هذا العصر، نجد أنه كان امتدادا حيا للعصور السابقة، بل إن الفكاهة – ومنها السخرية – قد تطورت، وتطور الأدباء بها، وكان لهم "مضحكخانة" يلتقون فيها، ويتندرون ويسخرون.

ومعنى ذلك، أن السخرية قد رافقت الروح المصرية- كذلك – فى العصر الحديث "فقد شهد النصف الثانى من القرن التاسع عشر حركة نشيطة فى هذا الفن،على أثر فشل الثورة العرابية،ووقوع البلاد تحت الاحتلال الإنجليزي"[٢] .

١- أدباؤنا وقضية التغريب، أ.د/أحمد خليل /٥٧ بتصرف يسير.
٢- السخرية فى أدب المازني، حامد الهوال/٩٧ بتصرف يسير.

وبعد وقوع مصر فريسة للاحتلال الإنجليزي، وبعد ظهور الصحافة، حدث تحول كبير فى فن السخرية " فمع ظهور الصحف اليومية فى عهد إسماعيل صدرت صحف هزلية ساخرة، اطلع كتابها على الصحافة الأوربية، واقتبسوا مما فيها من سخرية ونقد لاذع فى السياسة والمجتمع، وبذلك انتقل الأدباء والشعراء من مرحلة السخرية الخفيفة الهازلة إلى السخرية الجادة المفكرة الناقدة لكل أوجه الخلل فى الحياة السياسية والاجتماعية والتى استبدلت بالأشخاص والمسائل الضيقة : مصالح الأمة، وبسلوك الفرد سلوك الجماعة "[1]

ومن أشهر شعراء عصر النهضة الحديثة: على الدرويش، وشهاب الدين المصري، وعلى الليثى ، وأخيرا البارودي.

ومن السخرية من أصحاب اللحى الطويلة ، قول " على الدرويش " [2] متهكما وساخرا[3]:

الشيخ كابوس التحى ... وحركته الغيرة

يا ليت واراها كما ... وارت خراها الهرة

فالدرويش يبدأ سخريته هنا بإطلاق لقب "الشيخ كابوس" على هذا الشخص المسخور منه، وهى كناية عن رميه بالثقل، وكونه مصدرا للانزعاج، ولما كان هذا الإنسان ليس أهلا لإطلاق اللحية، فالشاعر يتمنى أن يوارى لحيته هذه ويخفيها، كما تخفى الهرة خرأتها.

وفى ذلك سخرية لاذعة وموجعة.

ويقول الدرويش– أيضا – محدثا نفسه ساخرا من الريف ومن الحياة فيه[4]:

تركت ريفا، غدا عنيفا ... من كل وجه تراه ضرك

كأنما جئت من جحيم ... إلى نعيم أراح سرك

١- الأدب الساخر، د. نبيل راغب/٣٢، ٣٣ بتصرف يسير.

٢- هو على الدرويش بن حسن بن إبراهيم الأنكورى، ولد بالقاهرة عام ١٧٩٦م، وتلقى العلم فى الأزهر الشريف، اتصل بعباس الأول وكان شاعره، وكان لاذع الهجاء لمن يبغضه، توفى عام ١٨٥٣م (ينظر: تاريخ آداب اللغة العربية، جورجى زيدان، ج٢١٢/٤، ط/دار الهلال).

٣- الإشعار بحميد الأشعار، على الدرويش /٩٥، ط ١٢٧٠هـ ، "والبيتان من مجزوء الرجز"

٤- أعلام من الشرق والغرب، محمد عبد الغنى حسن /٦٤، طبعة دار الفكر العربي، "مجزوء البسيط".

فالدرويش هنا، يرسم لنا صورة المصرى المالك، الذى لا تعجبه الحياة فى الريف المصري، فيهجره إلى المدينة.

ويسخر من قبح وجوه الفلاحين الكالحة التى تصيب من ينظر إليها بالضرر، ولذا فهو يعتبر نفسه كأنما انتقل من الجحيم إلى النعيم.

وهى سخرية تدل على ما ركب فى نفسه من كره للريف وأهله.

ومن شعراء هذه الفترة "شهاب الدين المصري" [1] .

ومن سخريته: قوله فى هجاء "على الدرويش" والتهكم به[2] :

عاش دهرا وجهله فى ازدياد ... ليته بعد لم يكن ليعيشا

جتنى الكرم يانعا وهو يأبى ... بجناياته ويرعى الحشيشا

وبأيدى القصور يبنى قصورا ... ونرى قبر أمه منبوشا

إن تبدى خياله بغدير ... خاف منه،وخال فيه جيوشا

قربه لم يكن لنا منه بد ... لو صرفنا فى البعد عنه قريشا

فشهاب الدين هنا، يسخر من الدرويش، ومن ازدياد جهله على مر الأيام ويصفه بأنه هين الشأن، قليل القدر بين الناس، نظرا لما يرتكبه من حماقات، فغيره من أصحاب العقول السليمة يعيش حياة كريمة، ويجتنى الكروم اليانعة، بينما هو يرعى الحشيش كالماشية.

ويسخر من بنائه للقصور بأموال تسلق إليها عن طريق تكسبه بالشعر بينما يرى الناس قبر أمه منبوشا ومتهدما، شاهدا على ضعته وحقارته.

ويسخر شهاب الدين أيضا من جبن الدرويش المزرى، ويصفه بأنه – لجبنه- إن رأى خياله فى غدير من الماء، فر خائفا مذعورا، وكأنه رأى جيوشا تطارده.

١- هو محمد بن إسماعيل بن عمر المصري، الشهير"بشهاب الدين" ، ولد بمكة المكرمة عام ١٢١٠هـ، وفد إلى القاهرة صبيا، ونشأ بها، والتحق بالأزهر ، وكان محبا للأدب، وكان من المقربين إلى عباس، وتوفى عام ١٢٧٤هـ الموافق ١٨٥٧م. (ينظر: الأزهر وأثره فى النهضة الأدبية الحديثة، د. محمد كامل الفقى ج٢٠٨/٣ وما بعدها "سلسلة البحوث الإسلامية"، مطبعة الأزهر).

٢- ديوان شهاب الدين المصري/٢٠٠، ٢٠١، مطبعة الشبراوى بمصر ١٢٧٧هـ ، "الخفيف التام".

وهى سخرية مؤلمة وموجعة – كما نرى- وإن كان الباعث عليها هو الرغبة فى التقويم والإصلاح.

ومن شعر البارودى[1] الساخر: قوله هاجيا وساخرا من شخص خسيس دنئ[2]:

كيف أهجوك والدناءة سور ... من حديد يقيك طعنى وضربي

لك عرض أرق نسجا من الري ... ح وأوهى من طيلسان ابن حرب

فالبارودى فى بيته الأول، يسخر من خسه هذا الإنسان، ومن دناءته ، فهو لخسته ودناءته لا يتأثر بالهجاء، كما لا يتأثر من تحصن وراء سور من حديد بالطعن والضرب.

كما يسخر فى بيته الثانى من رقة عرضه، ويصفه بأنه أرق نسجا من الريح وأوهى من طيلسان ابن حرب[3] الذى يضرب به المثل فى البلى والقدم.

وحين تجد الصحف الوطنية حرجا فى ذكر رتبة الباشوية مع اسم البارودي وهم يكتبون عنه، أو يتحدثون إليه فى عصر يعبد الألقاب، نراه يسخر من مهزلة الألقاب فيقول[4] :

منحتك ألقاب العلا فادعنى باسمى ... فما تخفض الألقاب حرا ولا تسمى

يقولون: محمود، وليت أننى كما زعموا ... أو ليت لى طالعا كاسمى

وهكذا نشعر بروح جديدة متوثبة ونحن نقرأ شعر البارودي، ونشعر بأنه يختلف تماما عن الأجيال التى سبقته، والتى لم يكن الشعر عندها معبرا عن خفق الروح، ونبض الوجدان.

١- ولد محمود سامى البارودى بمصر سنة ١٨٣٨م، ألحق بالمدرسة الحربية، ولما تخرج فيها، ولم يجد عملا عسكريا توفر على قراءة الشعر والأدب، حتى ظهرت عبقريته، ثم سافر إلى الأستانة، وعمل بها فى وزارة الخارجية، واتصل بإسماعيل، وتقلب فى الوظائف والمناصب العليا للدولة، حتى توفى سنة ١٩٠٤م تاركا ديوانا، ومختارات لثلاثين شاعرا ، قامت زوجته على طبعهما بعد وفاته.(ينظر: شعراء الوطنية فى مصر، للرافعي/٢٥، ٢٦ ، الطبعة الثانية، ط/الدار القومية للطباعة والنشر ١٩٦٦م).

٢- ديوان البارودي، تحقيق وشرح/محمد شفيق معروف، ج١/٨٣، مطابع دار المعارف بمصر ١٩٧٥م، "الخفيف التام".

٣- طيلسان ابن حرب: هو كساء بال أهداه محمد بن حرب إلى الحمدونى الشاعر، فلم يعجبه، وهجاه بأكثر من مائتى مقطوعة.

٤- انظر:محمود سامى البارودي، د. على الحديدى/٢٠٨، ط/دار الرائد للطباعة١٩٦٩م، والبيتان لم يسبق نشرهما.

فلقد استطاع البارودى "أن يعبر عن همومه الذاتية، وهموم الجماهير من حوله فى نسق شعرى يستوى على عرش الأصالة الشكلية والمضمونية، وهذه هى حقيقة الدور البليغ الذى نهض به البارودى فى مسار الحركة الشعرية الحديثة بلا جدال"[1] .

وهو بذلك يختلف تماما عن أجيال الضعف والانطفاء الشعرى المتعاقبة التى سبقته ، والتى لم يكن الشعر عندها معبرا عن خفق الروح ونبض الوجدان.

وبعد، فمن خلال هذا التطواف السريع فى عصور مصر الإسلامية نجد أنها منذ الفتح الإسلامى لها، تتعاقب عليها الدول والحكومات، ويتعاقب عليها أنماط من الحاكمين والغاصبين والنهازين للفرص، وقد انتهى الأمر بأن رزحت مصر زمنا طويلا تحت حكم الإخشيديين، والفاطميين، والأيوبيين، والمماليك، والعثمانيين.

وقد ظل المصرى - كذلك - إلى منتصف القرن العشرين محكوما بأفراد أو أسرات لا تشترك معه فى الأصل، بل ربما خالفته فى الجنس، وهى إلى غربتها وفضولها كانت تعتمد فى حكمها على البطش والجور والاستئثار بخيرات الوطن، فكان لابد للشعب أن يتهكم ويتندر بهؤلاء الحكام وبأعوانهم من أجانب ومصريين.. ولا عجب أن يقابل المصرى المتناقضات والحماقات، والأمور المختلة، والحظ العاثر، والكلمة النابية، والفعلة المعادية، والسخرية اللاذعة، بسلاح يتفق وطبيعة أخلاقه، وهذا السلاح هو النكتة الموحية، أو الابتسامة الساخرة[2] .

وسلاح السخرية – من خلال هذا المنطق – ليس هروبا سلبيا بقدر ما هو مواجهة إيجابية[3] .

١- عن اللغة والأدب والنقد، د. محمد أحمد العزب/١٢٠ .
٢- انظر: الفكاهة فى الأدب، د. أحمد الحوفي، ج٢/١٠٠ وما بعدها.
٣- انظر: الأدب الساخر، د. نبيل راغب/١٠٠ .